المتعاظم الصغير

يملك حب العظمة عليه نفسه ، ولقد ركبه هذا التعاظم منذ مدرجه وكبر معه ، فهو اليوم فى منتصف العقد الرابع ، طفل فى الخامسة والثلاثين . قتر على نفسه حتى اقتنى سيارة قديمة راح يتشبه بها بذوى اليسار من أصحاب السيارات الفخمة ، وإن كان مرتبه كله لا يساوى ما يدفع هؤلاء من (بقشيش) ؛ وقتر على نفسه مرة أخرى ، فقضى الصيف فى أوربا ، وإن كان من ذوى رحمه الأدنين من لا يكاد يجد قوته .

ومن أحب الأشياء إليه أن يذهب فى سيارته إلى القرية ، فيطلق نفيرها هناك عالياً فى داع وفى غير داع ، وينظر الفلاحون البسطاء إلى هـذا « الحدث » مبتسمين ، فيزهى إذ يخيل إليه غروره أنها ابتسامات الإعجاب . ولقد رأيته مرة — وكأنه أحد الدكتاتورين يدخل مدينة على رأس قوته المصفحة لكثرة ما تجبر يومها وتعاظم ، ولكن سيارته لسوء حظه أصابها فى تلك اللحظة عطل فوقفت ، ونظر مبهوتاً على صوت ضحكات قريبة ، وكنت غير بعيد من الفلاحين الضاحكين ، فحبست ضحكاتى مخافة أن يفهم الدكتاتور أنى غيران !

ومن آلم الأشياء عنده أن تمر به فلا تحييه ، ففى ذلك إنكار منك لعظمته ، ولقد يبلغ به الألم من ذلك حد الحمى ، فإذا أقبلت مع ذلك تحييه : تباطأ وهو يقبل عليك ، وتكلف سلام العظماء ونبرات العظماء وحركة رؤوس العظماء وعبوس العظماء أو تبسمهم حسب مقتضيات الظروف .

وشاع فى القرية أو أشاع هو فيها أنه ما من كبير من رجال الحكومة إلا وله عنده مكانة مهما اختلفت على كراسى الحكم ألوان الأحزاب ، وتهاوت عليه عرائض البسطاء يطلبون الاستخدام وما تزال تهاوى عليه وهو يدسها كل مرة فى جيبه فى اتزان ووقار بالغين ولكنهما مع ذلك يثيران الضحك العميق !

وهو ينظر إلى هؤلاء من عل ويفرح أشد الفرح إذ يجد من يتملقه ، ويفتر إذ يكون بعض الناس منه كما يكون هو ممن يطرق أبوابهم من ذوى المناصب مستجدياً متملقاً ، وهو كثيراً ما يتملق ويستجدى ، وقصارى أمره أن يظفر بتعيين فراش أو نقل ساع من جهة إلى أخرى يحبها ويحسب ذلك هو الجاه أعظم الجاه ، وهكذا يتمسكن ويتضاءل فى المدينة ليزهى ويتعاظم فى القرية ويريق ماء وجهه عند أولى المناصب من يعرف منهم ومن لا يعرف ليصعر خده لطالبي الرزق وذلك عنده من أعظم لذات حياته

وإذا جلس أحب أن يلتف حوله طالبو جاهه وفضله وثرائه ؛ ويعجب أشد العجب إن صفرت الحلقة من حوله ، فهو يعتبر نفسه كبيراً عظيماً ومن حقه أن يلتف حوله الناس كما يلتفون حول

فإذا ألانت فرنسا قناتها ، مع توفر أسباب الثبات ، وأجابت الألمان إلى ما يطلبون ؛ وقنعت بنصيبها الذى بذلته فى هذه الحرب ، وبنصيبها الذى قدر لها أن تنتهى إليه ، من جرها فى ذيل العربة الألمانية ؛ فكيف يكون موقفها من مؤتمر الصلح القادم ، عند ما تنتهى الحرب بنصرة الحلفاء !

أترضى فرنسا لنفسها ، ويرضى كبرياء شعبها ، وكبرياء قوادها ، وفيهم أبطال فردون ، وأبطال المعارك الهائلة فى الحرب الماضية ، أن تلعب اليونان ، وبولندا ، وهولندا ، والنرويج ، وتركيا ، دوراً رئيسياً فى هذا المؤتمر ، ولا تستطيع فرنسا أن تمثل دوراً ثانوياً فيه ! وإذا أجلستها إنجلترا إلى جانبها فى مكان الصدارة من المؤتمر ، فكيف يكون موقفها فيا بينها وبين نفسها وهى تعلم الدور الذى قنعت بتمثيله والقيام به :

لا شك أن كل ذلك ، فى جملته وفى تفصيله ، قد قدره المرشال وأعوانه حق قدره وحسبوا حسابه فى المفاوضات الدائرة الآن بين فرنسا وألمانيا ، فى صدد المطالب المزجاة . ومن يدرى ! فقد يرى المسئولون عن مصير فرنسا من رجال حكومة فيشى ، أن متاعب الحرب من جديد إلى جانب حليفتهم أقل من المتاعب التى تنشأ عن مزيد ومزيد من التسليم ، فيفضلوا الحل الأول على الثانى ويصلوا بدورهم فى الحرب إلى النهاية المفروضة على أمثالهم

وليس الغريب أن يقر قرارهم على شىء من هذا ، بل الغريب أن يقف الفرنسيون جامدين ، وأن يدوم تصميمهم بالتخلف فى الطريق . وستأتينا « جهيزة » فى الأيام القليلة القادمة بفصل الخطاب فى هذا الشأن الخطير ، عند ما يقول المرشال بيتان كلمته النهائية فى شأن المطالب الألمانية ، وهى كلمة الشرف والإباء ، والأنفة والكبرياء ، على ما نظن ، ويظن معنا الكثيرون .

(دار الأهرام) يوسف شبل